المقدمة

ابن سينا (٣٧٠ هـ: ٤٢٨ هـ) عالمٌ موسوعيّ، استطاع أن يحفر لنفسه مكاناً رفيعاً في تاريخ البشرية، وذلك بما أسداه لها من معارف / علوم في غير مجال من مناشط الحياة الإنسانية، والرجل، أيضاً، فيلسوف حالَ نظرُنا إلى آثاره في مجال الفلسفة بوجهٍ عام، ما أهله لأن يجمع الحسنيين: الفلسفة والعلم.

ولا تقوم مشقة أمام الباحث ليعرف أخبار حياة ابن سينا ؛ فكُتب " الطبقات والحكماء " تتناول حياة الرجل بالتفصيل وبما يليق بمقامه الفلسفي والعلمي، خاصة أن ابن سينا قد خلّف لنا ما يرويه هو عن نفسه من أخبار حياته، كما الحال في " طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة "، ثم إن تلميذه عبد الوحد الجوزجاني قد أكمل الذي تركه ابن سينا ليزيدنا معرفة بالرجل وتاريخه وإنجازاته الفلسفية والعلمية على السواء.

نشأ ابن سينا في ظل الدولة الساسانية بخراسان[١]، وهو أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن عليّ بن سينا، ولد في أفشنة بالقرب من خرمثين من أعمال بخارى في آسيا الوسطى، وكان مولده في صفر من العام ٣٧٠ هـ (= ٩٨٠ م)، وعندما بلغ العاشرة

---

١ - تُنسب الدولة الساسانية (عمّرت ٤٢٥ عاماً) لـ " ساسان " وكان كاهناً على مذهب زرادشت، كما كان جد أول ملوك الساسانيين " أردشير الأول" الذي أسس دولته بعد هزيمة أرتبانوس الرابع التركماني، واستمرت دولةً لها تأثيرها في منطقة إيران والعراق وأفغانستان وباكستان وتركيا إلى عهد يزدجرد الثالث (٦٣٢ م: ٦٥١) آخر ملوك الساسان الذي تُوفّي بمدينة مرو. تذهب دراسات إلى أن الثقافة الساسانية أثرت حتى على الحضارة الرومانية، بل حتى على أوروبا الغربية، كما لعبت دوراً في تحويل البعد الإسلامي، بعد الفتح، إلى عصر نهضة فارسي !!!.

من العمر كان قد حفظ القرآن الكريم كاملاً[١]، وأقبل على دراسة الفكر والأدب حتى صار مضرب المثل في تنسيق ونركيب جمله الفلسفية[٢].

وتتفق الكتب التي أرختْ لابن سينا على أن بيته كان بيت علمٍ، وكان يحتضن الدعوة الإسماعيلية، حيث كان مركزاً من مراكزها[٣].

كان الأب رجلاً من أهل مدينة بلخ التي هي من بلاد الأفغان، وكان عاملاً للدولة السامانية[٤] تلك التي ظهرت في ظل الدولة الأم الدولة الطاهرية[١] والتي تنسب، في المقام الأول لـ " الطاهر بن الحسين ".

---

١ - ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. بيروت ١٩٨٦م ص٤٣٧

٢ - ابن القفطي: أخبار الحكماء. القاهرة ١٣٢٦ هـ ص٢٦٩

٣ - جاء وقتٌ على الدولة العباسية انقسمت فيه إلى دويلات، وقد اتسم العصر الذي نشأ فيه ابن سينا بالاضطراب السياسي وانهيار سلطان الدولة وتمزقها إلى دويلات مستقلة، حتى كانت خراسان، وأقاليم فارس جميعاً، مستقلةً عن الخليفة، وكان يحكمها أمراء لا يدينون لبني العباس إلا بالخطبة على المنابر وفي صلوات الجُمع والأعياد، ولم يكن ذلك عن إيمان بحق بني العباس في الخلافة، لكن الأمراء كانوا يؤمنون بأن بني العباس أضعف من أن يجمعوا سلطان الحكم الفعلي إلى سلطان الخلافة الاسمية، حتى كان أحمد بن بويه يقسم الأمر بينه وبين المستكفي ؛ فيعترف للمستكفي بلقب الخلافة ويعترف له المستكفي بلقب السلطان... والإسماعيلية منشقة عن التشيع الإمامي العام، واتخذت منهجية عقدية وأخرى سياسية: فأما العقدية فـ " الإمامة الباطنية "... حيث " لكل ظاهر باطن، ولكل تنزيل تأويل "، وأما سياسياً فـ " العمل السري "، وبذا أسست الإسماعلية منهجاً للعمل السياسي جديداً تمثل في الأخذ عن الإمامية مبدأ التقية، وعن الزيدية مبدأ عدم السكوت / الخروج !!!، وقد مهد لهذا كله منظّرو الإسماعلية الفكريون: إخوان الصفاء وخلان الوفاء.

٤ - أسّسها، بعد توليه بأمر الخليفة المعتمد ماوراء النهر، نصر بن أحمد السامانى.

في مدينة إفشنة تزوج الأب وأنجب ابن سينا الحسينَ، حيث اشتهر بكنيته " ابن سينا "، وأصبح اسمه من أشهر الأسماء بين الفلاسفة والأطباء في الشرق الإسلامي، ثم أصبح لقب " الشيخ الرئيس " عَلَماً عليه وحده لا يتطرق / لا يُصرف إلى سواه، ولما أتمَ ابن سينا سنيَّ صباه انتقلت الأسرة إلى بخارى، حيث جاءت جماعة من دعاة الإسماعيلية لنشر دعوة العلويين، وانحاز إليهم نفرٌ كثير، لكن

يُرجع البعض التسمية إلى سامان الذي دخل الإسلام بعهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك العام ١٢٠ هـ (= ٧٣٧م) وله جذور تتصل بـ " بهرام الخامس " أحد ملوك الساسانيين. =

= وقد تمكن السامانيون (٢٦٦ هـ: ٣٨٩ هـ) (= ٨٨٠م: ٩٩٩م) من القضاء على الصفاريين لما أعلنوا عصيان الخليفة، وقد نجحوا في القبض على محمد بن عليّ بن الليث، ما مهد لمد نفوذهم حتى خراسان وطبرستان، ثم تمكنوا السيطرة على الري وقزوين.

دام حكم السامانيين ١٧٠ عاماً تقريباً، وكانت النهاية على يد آل سبكتكين في خراسان، كما على يد الترك الخاقانية في التركستان.

١ - الدولة الطاهرية (٢٠٥ هـ: ٢٥٩ هـ) أسسها طاهر بن الحسين أحد قادة جيش المأمون، حيث كان، وابنه عبد الله، من كبار رجال الدولة العباسية.

كان للطاهر مواقف معَ المأمون حيث وقف بصفه وقت كثير من الأزمات بما في ذلك صراعه مع الأمين.

في العام ٢٠٧ هـ منع الطاهر الدعاء، من على المنابر، للمأمون، ما يعني استقلاله عن الخلافة، وبوفاة الطاهر في نفس هذا العام تولى ابنه طلحة حكم خراسان وبرضا المأمون نفسه على أن يظل من تابعي الدولة العباسية !!!، ولعل ذلك أن يكون طمعاً من الدولة الأم في مساندة الطاهريين لها ضد الخارجين عليها، ولقد حارب عبد الله بم طاهر الخارجيَّ نصرَ بن شيث الذي قاد ثورة في شمال حلب العام ٢٠٩ هـ وجاء به أسراً أمام المأمون، كما اشترك عبد الله بن طاهر في إخماد غير فتنة قامت بإقليم طبرستان بعهد المعتصم، ما جعل الخلفاء العباسيين يرضون منح الطاهريين ما يشبه " الحكم الذاتي ". وبقي الأمر هكذا حتى العام ٢٥٩ هـ وفيه استطاع يعقوب الصفّار أن يقيم دولته على أنقاض دولة الطاهريين. راجع في ذلك. أحمد أمين: فجر الإسلام. النهضة المصرية. القاهرة ١٩٨٢م ص ١٠٤

ابن سينا، حسب قوله هو نفسه، كان يفهم أقوالهم وقلبه بعيدٌ عنهم، وظل منكباً على دراسة الرياضيات والطبيعيات[١] والمنطق وعلم ما بعد الطبيعة (= الميتافزيقا)، وأخذ الطب على يد أستاذه عيسى بن يحيى، ولم يتجاوز، ابن سينا، السادسة عشرة من عمره، وبتعمقه في دراسة الطب أصبح ذا صيت كبير بين الأطباء، ما جعل الأطباء يأخذون عنه من مدرسته.

تُرجع غير دراسة عبقريةَ ابن سينا إلى ذكائه النادر، كما إلى دهائه السياسي، كما إلى لياقته الاجتماعية ؛ فلقد كان الرجل متعدد نواحي الشخصية، يعرف لكل موقفٍ فعله، كما يعرف لكل مقامٍ قوله: كان فيلسوفاً مع الخاصة، ديّناً تقيّاً مع العامة، مندفعاً في هواه في حياته الخاصة !!!، ومع ذلك كله، وبرغمه، كان مفتاح شخصيته اعتداده بنفسه ؛ فليقِد استقدم له أبوه أبا عبد الله النائلي، المعروف بالتفلسف، ليعلم ابن سينا المنطق والفلسفة، فكان أن تعلم ابن سينا منه وفاقه في كثير من مسائل / قضايا المنطق، كما أنه حلّ بنفسه الكثير من مسائل إقليدس، وكذلك حل الكثير من أشكال المجسطي، ما جعل النائلي يطلب من الأب ألا يشغل ابنه بغير العلم.

بعد رحيل النائلي إلى كركانج أخذ ابن سينا يحصّل العلم لنفسه بنفسه من الشروح ومن النصوص سواء بسواء، ولم يفرّق بين الطبيعيات والإلهيات، وشد على نفسه في دراسة الطب بشكل خاص حتى قال عنه إنه ليس بالعلم الصعب[٢].

---

١ – من الناحية اللغوية الصرفة، فإن الكلمة تُكتب " الطبعية "، لا " الطبيعية "، وكذا " طبعي " لا " طبيعي " على وزن " مدني " لا " مديني " إذ هذا مأخوذ من " طبيعة " شأنها شأن " مدينة "... لكننا آثرنا استخدام ما هو دارج ما لم يؤدّ إلى فهم غير صحيح.

٢ – البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ص ٣٧: ٧٣، البيهقي: تاريخ الحكماء ص ٤١٥: ٤٢٥، ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص ٤٣٧: ٤٥٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان. ص ١٥٧، ١٥٨

كان ابن سينا ذا همّة عالية وصار من المعروف عنه أنه لم ينم ليلة واحدة " بأكملها "، وكان ذا قدرة كبيرة على التأليف والإبداع، دليل ذلك ما تركه لنا من إرث كبير من الكتب والمؤلفات العلمية سواء في مجال الفلسفة بفروعها المختلفة، أم في الطب، أم في علوم اللغة[١].

لم يؤلّف ابن سينا ما ألّف لا في مدينة واحدة، ولا دفعةً واحدة ؛ فكتاب الشفاء بدأ في تأليفه، ولعشرين يوماً، في مدينة همذان، وكتاب القانون في الطب، صنّف الرجل بعضه في مدينة جرجان، وبعضه في مدينة الرس، وأتمّه في مدينة همذان، ثم إنه يعلن أنه كان ينوي إكماله بشروحٍ وتجارب.

كل هذا يمهد للتأكيد أن الرجل كان غزيرَ التأليف، ذا قدرة كبيرة على الاستيعاب رغم مشاغله الكثيرة، تلك المشاغل التي دفعت به أن يقسّم يومه بين أعمال الوزارة نهاراً، والاشتغال بالعلم ليلاً... مع عدم نسيان حق نفسه عليه !!!.

في أخريات حياته أصابه الصرع، حدث ذلك في مدينة طوس، وتم نقله إلى مدينة أصفهان، وبقي وقتاً يصارع المرض ويحاول علاج نفسه بنفسه، ولما أيقن سقوط قوته كفّ عن علاج نفسه وأعلن: " إن المدبر الذي كان يدبرني عجز عن التدبير " !!!.، ورحل عن دنيانا في العام ٤٢٨ هـ وكان عمره ثماناً وخمسين سنة.

اختلف الناس في ابن سينا ؛ فمنهم من يجعله تركيّاً، ومنهم من يجعله فارسياً، ومنهم من يجعله عربياً، وإنْ كان هذا الاختلاف يدور حول " أصل " الرجل، فلقد وقع خلاف مثله، وأشد، بشأن " عقيدة " ابن سينا ؛ فيكتب عليّ بن شيخ فضل الله

---

١ - ألف ابن سينا كتاباً أسماه " لسان العرب " بعد مناظرة جرت بينه وبين اللغوي المعروف أبي منصور الجبائي، وكان ذلك بحضرة الأمير علاء الدولة.

الجيلاني رسالة تحت عنوان " توفيق التطبيق " يؤكد فيها أن ابن سينا " من المسلمين... ومن أكابر علماء الإمامية الاثنى عشرية " !!!، ومؤلف الكتاب يبين أن سبب كتابة كتابه هذا ما حدث في مدينة شيراز العام ١٠٦٢ هـ حيث ذكر البعض، في حضرة نفر من السادات، أن ابن سينا منسوب إلى الكفر والزندقة. ومن ناحية أخرى فإن هناك من ينسب الرجل لأهل السنة والجماعة[١].

وتقوم دراستنا هذه عن ابن سينا تأسيساً على أن فترت التطور العلمي الحاسم هي ذاتها فترات مراجعة المناهج والوعي بأسسها، حيث ندرس علمية ابن سينا ونتبين حدود التجربة، وعناصرها، عنده، ما يمهد أن نتعرف آراء الرجل العلمية والفلسفية على السواء.

ومن اللافت للنظر أن فلسفة ابن سينا متشعبة الاتجاهات، وأن قضية واحدة من تلك القضايا التي أثارها ابن سينا تحتاج أبحاثاً كثيرة لبيانها، ما دفع البعض إلى دراسة جانب واحد من فلسفة الرجل وتجنُّب دراسة جوانب أخرى بدعوى التشعب تارة، أو بدعوى التأثير الذي قد كان للفلاسفة السابقين على ابن سينا في فلسفته، وإنْ كان هذا لا يعيب فلسفة أي فيلسوف، فلقد كان عصر ابن سينا عصرَ شمول، وحكمه في ذلك حكمُ عصور الفلسفة التي سبقته، فقد كان على الفيلسوف أن يلم بشتى المعارف، علاوة على أن الأخذ عن الغير، أو التأثر بالغير، لا يعد مبرراً لإغفال فلسفة ابن سينا، لأنه، وإنْ تأثرَ بمن سبقه، وتلك سمة أساس في الفلسفة، بل الفكر بوجه عام، فقد أثّر الرجل في لاحقيه.

---

١ – د. مصطفى حلمي: ابن سينا والشيعة. الكتاب الذهبي عن المهرجان الألفي عن ابن سينا ص ٧٤، ٧٥

تأثّرَ ابن سينا بكثيرٍ ممن سبقه ؛ تأثرَ بأرسطو وستراتون وثابت بن قُرة ويوحنا فيلويونوس وثاوفرسطس وأفلوطين والكندي والفارابي، ثم إنه أثّر فيمن جاء بعده ؛ تأثرَ به أبو حامد الغزالي والشهرستاني وأبو البركات البغدادي وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وفخر الدين الرازي ونصير الدين الطوسي وعضد الدين الإيجي والشريف الجرجاني... وغير هؤلاء كثير، بل إن الدارس يلاحظ عند كثيرٍ من رواد الفكر لمحدَثين والمعاصرين تأثراً بابن سينا ؛ تأثر به جيلسون والدكتور إبراهيم بيومي مدكور والدكتور أحمد فؤاد الأهواني والأب جورج شحاتة قنواتي والدكتور عبد الحليم منتصر، وذلك لأن الفلسفة تأثير وتأثر... أو كما يقول وول ديورانت " نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم المبدعون تمام الإبداع، من حيث إنهم لا يتأثرون بعقول غيرهم ".

سندرس ابن سينا، علميته تحديداً، واضعين في الاعتبار عصره وثقافته واتجاهات التفكير التي سادت أيامه، فلقد مرّتْ قرونٌ طويلة أُجريت فيها الكثير من الأبحاث والتجارِب ولم يكن في مقدور ابن سينا أجراؤها، كما أن هناك الكثير من الاختراعات قامت في دنيا الناس المعاصرة لم تكن موجودة بعصر ابن سينا، ما يبرر لابن سينا تجاوز الكثير من آرائه دون التقليل من قيمتها العلمية بحال.

ستأتي الدراسة في سبعة فصول:

الفصل الأول: يتناول مفهوم العلم، وكذا موقف ابن سينا من التيار العلمي الذي قد كان سائداً في عصره.

الفصل الثاني: يتناول المصادر التي أخذ منها ابن سينا علمه، وذلك من خلال الكلام في موقف العلم العربي من علوم اليونان، والتي يمكن التأكيد على أنها تمثل الرافد الأساس للعلم العربي.

الفصل الثالث: يتناول القيمة العلمية الضرورية للمنهج، وذلك من خلال الكلام في فكرة المنهج وتعريفاته في الأطر العلمية.

الفصل الرابع: يتناول الكلام في عناصر المنهج التجريبي، تلك التي نعتقد أنها ضرورية لأي بحث، أو دراسة، علمية.

الفصل الخامس: يتناول التطبيقات العلمية عند ابن سينا، وكذا بيان منهجه العلمي، وذلك عبر بيان إنجازات ابن سينا في الطب منظوراً إليها بما انتهت إليه الأبحاث الطبية المعاصرة.

الفصل السادس: يتناول المنهجَ العلميّ عند ابن سينا في مجال الطبيعيات غير الحية، كما يعرض هذا الفصل دراسات ابن سينا العلمية في الظواهر الأرضية والعلوية.

الفصل السابع: يتناول المنهج العلمي عند ابن سينا في مجال الطبيعيات الحية، كما في النبات والحيوان.

هذه دراسة نرجو أن تأتي بجديد يفيد المكتبة العربية، فإن كان فبفضلٍ من الله تعالى، وإنْ لم يكن فالتقصير مردود إليّ عساني أتداركه يوماً... والله، تعالى، هو الموفق، فهو، سبحانه، من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

دكتور سيد عبد الستار ميهوب

حي القدس. الرياض. السعودية

obeikandl.com